

العنوان:	الأيدولوجية السياسية : ماهيتها ، دورها ، علاقتها بالحقائق والقيم
المصدر:	مجلة مصر المعاصرة
الناشر:	الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع
المؤلف الرئيسي:	ربيع، محمد محمود
المجلد/العدد:	مج 69, ع 374
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1978
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	107 - 122
رقم MD:	82219
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	فلسفة السياسة، العلوم السياسية، القيم، النظم السياسية، المذاهب السياسية، التنظيمات السياسية، الحركات القومية، المنظمات الدولية
رابط:	<a href="http://search.mandumah.com/Record/82219">http://search.mandumah.com/Record/82219</a>

## الأيديولوجية السياسية ماهيتها . دورها . علاقتها بالحقائق والقيم

نكتور محمد محمود ربيع

من الفروض المثيرة للجدل القول بأن الصراع الأيديولوجي سمة بارزة من سمات عالمنا المعاصر . وتتضاعل امكانية الاتفاق على صحة هذا الفرض نظرا لأن الكثيرين ينظرون اليه من منظور أيديولوجي . الا أن هذا الفرض ليس هو الموضوع الرئيسي لبحثنا . وانما أردنا القول بأن النظر الى ذلك الصراع كمجرد نزاع أو مواجهة بين أفكار ومعتقدات مختلفة هو اتجاه يجانبه الصواب ، لأن تلك الأفكار والمعتقدات هي بدورها تعبير عن تصورات ورؤى ومصالح متعارضة (١) . ونظرا لما هو معروف من تعذر التوفيق بين مصالح الدول الكبرى أو بينها وبين الدول النامية ، فاننا نفترض أن تلك الأيديولوجيات لازالت — خلافا لما يراه البعض — تمارس تأثيرات كبيرة على النظم السياسية وعلى ما تتبناه من سياسات داخلية وخارجية .

ان أول ما تحتاجه الدراسة العلمية للأيديولوجية السياسية هو توفير أقصى قدر ممكن من الوضوح لتجاوز الضبابية المحيطة بها والنتيجة جزئيا من كثرة المدارس والتيارات التي عالجتها . لهذا ، لن نتناول في هذا البحث أيديولوجية بعينها بقدر ما سنركز على بعض النقاط الأساسية المرتبطة بدراستها . من تلك النقاط : ماهية الأيديولوجية ، ودورها ، والمصاعب التي تكتنف الاستعانة بها ، والتحفيزات التي ترد عليها في الاستخدامات العلمية ، وعلاقتها بمشكلة الموضوعية وبالجدول الذي لا يهدأ حول الحقائق والقيم .

### ١ — جذور ذلك المفهوم :

يعتبر اصطلاح الأيديولوجية اصطلاحا حديثا نسبيا بدأ استعماله منذ اقل من قرنين . وكان أول من ابتكره هو المفكر الفرنسي أنطوان دوتراسي (٢)

(١) محمد محمود ربيع ، مناهج البحث في السياسة ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ٢٣١ .  
(٢) Antoine Louis Claude Destutt de Tracy, 'Mémoire sur la faculté de penser', Mémoires de l'Institut National des Sciences et des Arts pour l'an IV de la République : Sciences morales et politiques, tome Ier, Paris, Thermidor an IV, p. 324, cited by, H.M. Drucker, The Political Uses of Ideology, London 1974, p. 3.

في مايو آيار من عام ١٧٩٧ ليدشن به علما جديدا أسماء علم الأفكار "Science of ideas" ، ويشير في الوقت نفسه الى أنه وان كان الاصطلاح جديدا فان لذلك العلم جذور قديمة ، أما لماذا اختار مصطلحا جديدا لهذا الغرض فيرجع في رأيه الى ضرورة وفائدة التفرقة بين « العلم الجديد » وبين « ما وراء الطبيعة » .

وقد يكون التذكير مجددا بأن المرحلة التي عاصرها دوتراسي كانت مرحلة الغليان التي اعقبت الثورة الفرنسية ، وأنه كان واحدا ممن حاولوا القيام بعمل ثوري مماثل في مجال الفكر والعلوم انطلاقا من مقولته بأن المفاهيم الفلسفية التي سادت قبل الثورة الفرنسية — ولعله قصد الفترة المدرسية من العصر الوسيط — كانت خاطئة لاستنادها الى ما وراء الطبيعة ، وان بناء النظام الاجتماعى الجديد على حقائق العلم كفىل بتقضى الأخطاء الماضية . قد يتفق هذا مع ما ذهب اليه أحد المؤرخين الفرنسيين (٢) من أننا قد نجد صلة أقوى بين أفكار عصرين متباعدين مما قد نجده بين أفكار حقبتين متقاربتين تاريخيا رغم أنه كان على حق أيضا في تحذيره من أنه ليست هناك مذاهب قديمة بشكل مطلق ، ولا مذاهب جديدة تماما .

على كل حال ، لابد من التنويه بفضل المفكرين العظام الذين ساهموا في اثراء الفلسفة الانسانية ومهدوا للثورة الفرنسية من أمثال فرانسيز بيكون ( ١٥٦١ — ١٦٢٦ ) ورينيه ديكارت ( ١٥٩٦ — ١٦٥٠ ) وجون لوك ( ١٦٣٢ — ١٧١٤ ) ، الذين أثروا على من أصبحوا يسمون « الأيديولوجيون » Idéologues أى المؤمنين بقوة الأفكار . فقد تبين أن هؤلاء الآخرين أعجبوا بصفة خاصة بالنقد الحاد الذى وجهه ديكارت للفلاسفة المدرسيين ، وباقدام بيكون على تحطيم أوثانهم التى كبلوا بها فكر الانسان ، وبإسهام لوك الذى اعتبروه منشىء أعظم ثورة فلسفية وأكثرها فائدة ، كما أبدوا إعجابهم بكتابه الذى « أوضح مدى وحدود معرفتنا وجدد الإدراك الانسانى كلية » (٤) .

## ٢ — مصطلحات وتعريفات أولية :

لكن الحديث عن الأيديولوجية السياسية لابد وأن يؤدي الى استخدام مصطلحات أخرى مثل الأفكار والفلسفات والنظريات والمذاهب السياسية مما يحتم ضرورة التمييز بينها وشرح العلاقات التى تربطها ببعضها توخيا للوضوح الذى استهدفناه من كتابة هذه المقدمة العامة .

A. Sudre, Histoire de la souveraineté ou tableau des institutions et (٣) des doctrines comparées de l'antiquité, Paris 1864, cité par : Marcel Prélot, La Science Politique, Que sais-je ?, Paris 1963, pp. 74, 75.

C.H. van Duzer, Contributions of the Ideologues to French Revolu- (٤) tionar, Thought ; Baltimore 1935, p. 17 ; L. Lévy-Bruhl, History of Modern Philosophy in France, London 1899, p. 272, quoted by, H. Drucker, The Political Uses of Ideology, op. cit., pp. 4, 5.

فالفكرة السياسية political idea تصور عقلي لظاهرة سياسية أو شيء سياسي بمعنى حصول صورة الظاهرة أو الشيء في الذهن . وقد عرف الإنسان منذ قيام حضاراته الأولى أفكارا سياسية متعددة كانت تمثل الأوضاع والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي كانت سائدة في تلك الحضارات .

في مرتبة أعلى من الفكرة السياسية تأتي الفلسفة السياسية Political philosophy . والفلسفة بصفة عامة تعنى تلك الرؤية المتعمقة أو النظرة الشاملة أو مجموعة النظرات الشاملة التي تحاول تفسير العالم ولطبيعة المجتمع والإنسان . بالتالي ، تكون الفلسفة السياسية هي المعالجة المنهجية من جانب الفيلسوف لتلك النظرات والأفكار السياسية التي تدور حول تلك المسيمات .

والفلسفة السياسية قد تنسب لموضوعها أو للطبيعة الغالبة عليها فيقال مثلا فلسفة سياسية مثالية أو مادية أو توفيقية أو ليبرالية أو اشتراكية . الخ . كما قد تنسب الفلسفة السياسية لاسم صاحبها أو للمفاهيم أو المبادئ التي يعالجها فيها كما نجد مثلا في مبدأ الخير العام في كتابات أرسطو ، ومفهوم العصبية لدى ابن خلدون ، ومبدأ السيادة لدى جان بودان أو مبدأ الحرية لدى جون لوك (٥) .

أما النظرية السياسية فهي من وجهة النظر العلمية أرقى تلك المصطلحات المستخدمة قاطبة من حيث أنها أهدى كل باحث في محاولته للتدليل على صحة مجموعة من الفروض التي توصل إليها أو توصل إليها غيره ، والنظرية كما يراها الفلاسفة هي قضية تثبت ببرهان ، وهي تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ .

إلا أن هناك فرق بين الفلسفة السياسية والنظرية السياسية يتجلى في محاولة توفير أعلى قدر ممكن من الحجية لهذه الأخيرة بحيث تصبح نظرية سياسية علمية قامت البراهين على صحتها مما يؤهلها للوقوف على قدم المساواة مع النظريات العلمية الأخرى في حقول الرياضة والطبيعة على سبيل المثال .

ويرى بعض علماء السياسة المتأثرين بالفلسفات الوضعية والوضعية المنطقية أن صعوبة التحقق من صحة المقولات والظواهر السياسية عن طريق التجارب الحسية يجعل النظرية السياسية فلسفية أكثر منها علمية ، وهذه نظرة متطرفة سنتناولها بالشرح والتعليق فيما بعد ، ويكفي لدحض ذلك مؤقتا الكشف عن العلاقة الجدلية بين النظريات السياسية والواقع ، إذ أنها تنبثق من ذلك الواقع ثم تعود لتؤثر فيه .

(٥) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، بيروت ١٩٧٣ ، المجلد الثاني ، ص ١٥٧ ، ١٦٠ ، حسن صعب ، علم السياسة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

« فالنظرية الأفلاطونية حول تعاقب نظم الحكم مأخوذة من التجربة السياسية اليونانية ، ونظرية لوك حول حقوق الانسان الطبيعية مأخوذة من التجربة الثورية البيوريتانية ، ونظرية مونتسكيو حول فصل السلطات مأخوذة من ملاحظته للنظام السياسى الانجليزى . وقد انتبه لينين لهذه العلاقة الضرورية بين النظرية والواقع وأكد أنه لا ثورة بدون نظرية ثورية» (٦) .

يلتزم عالم آخر بالتصنيفات التى أرساها علماء السياسة عام ١٩٤٨ فى اطار اليونسكو فيقول ان المعنى الاول للنظرية السياسية هو دراسة تاريخ الأفكار السياسية والظروف التى انضجتها وتأثير تلك الافكار على الممارسة السياسية . والمعنى الثانى هو الدراسة المنهجية للمؤسسات وللسلوك السياسى فى عالمنا المعاصر مع التركيز بصفة خاصة على الابتعاد عن أية أحكام أخلاقية أو قيم معيارية ، ومحاولة التوصل الى أحكام عامة بواسطة طرق ومناهج جمع المعلومات والتحقق من صحتها بالبرهان وليس بالحدس ، ثم يستطرد ليوضح خطأ وضع المعنيين فى مواجهة بعضهما البعض نظرا لأن كلا منهما يحوى عناصر من الآخر (٧) .

يختلف المذهب السياسى Political doctrine عما سبق بسبب الموقف الذى يتخذه الانسان نفسه ، فقد يتخذ انسان ما من أية فلسفة أو نظرية عقيدة له بمعنى أن يؤمن بها ولا يرضى بمناقشتها عقليا أو طبقا لمنهج علمى ، عندئذ تصبح تلك الفلسفة أو النظرية بمثابة مذهب بالنسبة له يسعى الى اقتناع الآخرين بصحته والعمل بموجبه أو وفقا لتعاليمه ، وفى هذا يقول العالم والفيلسوف كلود برنارد :

« ان النظرية هى الفرض الاختبارى الذى خضع لرقابة العقل وللنقد التجريبى ... ولا تظل النظرية صحيحة الا اذا تعدلت على ضوء التقدم العلمى ونقدت نقدا اختباريا على هدى ما يظهر من وقائع جديدة ، أما اذا اعتبرت النظرية كاملة ، ووضعت فوق الاختبار العلمى فانها تصبح حينئذ مذهباً» (٨) .

يعرف المذهب بأنه مجموعة من الحقائق المنظمة والمتماكة والمتصلة غالبا بالسلوك ، لهذا فهى أقرب الى الأيديولوجية منه الى الفلسفة أو النظرية ، واذا عقدنا مقارنة بين المصطلحات السابقة لوجدنا أن الفكرة

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٩ ، ٥٠ ، جيل صليبا ، المعجم الفلسفى ، مصدر سابق ، ص ٤٧٧ ،

Arnold Brecht, Political Theory (The Foundations of Twentieth Century Political Thought), Princeton, New Jersey 1959, p. 17.

Andrew Hacker, Political Theory (Philosophy, Ideology, Science), (٧) New York and Chicago 1961, pp. vii, viii.

Claude Bernard. Introduction à la médecine expérimentale, Paris (٨) 898, p. 349 ;

استشهد به د. حسن صعب ، علم السياسة ، مرجع سابق ، ص ٥٠ - ٥٢ .

هي أكثرها بساطة وشمولا ، والفلسفة هي فكرة منهجية ، والنظرية فكرة تحولت الى فرض علمي ، بينما المذهب فكرة أصبحت عقيدة .

### ٣ - ماهية الأيديولوجية السياسية :

تعتبر الفترة التي اعتقت القرن السابع عشر في أوروبا ( والمسمى بعصر العقل ) والى انتهاء القرن التاسع عشر من أخصب الفترات الفكرية التي عرفها تاريخ البشرية وذلك بسبب كثرة ما ظهر فيها من نظريات وتصورات حول طبيعة الانسان وتفسير علاقاته بالأوضاع الاجتماعية آنذاك ومستقبلا . وقد ساعد على ذلك التنوع والخصوبة غنى المرحلة بالثورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اعتقت خروج أوروبا من ظلام الاقطاع في العصر الوسيط ودخولها في النظام الرأسمالي الصناعي وما أدى اليه من ارتفاع وعى الانسان بالوسائل المتعددة والطرق البديلة التي يمكن أن يسلكها في تنظيمه للمجتمع وتغيير معتقداته وانتفاءاته الفلسفية والدينية والسياسية ، لهذا كان طبيعيا أن تسمى الفترة كلها بعصر الأيديولوجيا وأن يضل الأمر بالبعض الى اعتبار القرن الثامن عشر المعروف بعصر التنوير داخلا في تلك الفترة أيضا .

نتيجة لكل ذلك ، كثرت بشكل ملحوظ التعريفات حول ماهية الأيديولوجية ، وتنوعت الاجتهادات تبعا لحقل اهتمامات الكاتب فظهرت تعريفات تركز على الجانب الفلسفي وأخرى تهتم بالمضامين الاجتماعية وثالثة بالأبعاد النفسية ، كما تلونت نفس التعريفات وفقا لعقيدة المفكرين ونظرتهم للحياة والانسان وموقعهم من القيم المادية أو الروحية بحيث صار من المتعذر وربما من المستحيل أن يتفق المفكرون حول ماهية الأيديولوجية السياسية وما اذا كانت ضارة أم نافعة والأسباب الداعية الى تغليب رأى أو موقف على آخر ، « فأفكارنا العامة ومفاهيمنا المتعددة حول ماهية الأيديولوجية يناسب كل منها أيديولوجيتنا نحن ، بمعنى أننا نختلف لأننا ننظر الى الأيديولوجية من وجهة نظر أيديولوجية ، أى نبحث فيها من منطلق أفكارنا كمحافظين أو ليبراليين أو ماركسيين » (٩) .

منذ أيام الأيديولوجيين الفرنسيين الذين اشرنا اليهم اعلاه فإن التعريف المتفق عليه بشكل واسع هو أن الأيديولوجية منظومة من الأفكار، ويضيف قاموس وبستر الانكليزي أن تلك المنظومة من الأفكار « تعنى بالظواهر ، خاصة تلك التي تتعلق بالحياة الاجتماعية ، وبأسلوب التفكير الذي يميز الفرد أو الطبقة » . وينتقد أحد الكتاب (١٠) هذا التعريف بسبب ما فيه من خلط ، فقسمة الأول يوحى بأن الأيديولوجية نظرية عن الظواهر الاجتماعية بشكل خاص وبالتالي يميل الى اقتناع العقل بأنها قضايا

H. Drucker, The Political Uses of Ideology, op. cit., p. XII. (٩)

Henry D. Aiken, The Age of Ideology (The 19th Century Philosophers), New York, 1956, p. 14. (١٠)

موضوعية تصف شيئا موجودا في هذا العالم ، أما القسم الثانى من التعريف فلا يوحى بأن الأيديولوجية نظرية وإنما أسلوب للتفكير أو نسق من المواقف وبذلك تتسم بالذاتية وتعبر عن الأسلوب الذى ينظر به الفرد أو الجماعة الى الواقع .

يتفق مع هذا التعريف ويختلف معه في نفس الوقت ما ذهب اليه مفكر آخر (١١) من أن الأيديولوجية السياسية هي « نظام متنسق من الأفكار والمعتقدات يفسر موقف الانسان من المجتمع ويؤدى الى اعتماد نسق من السلوك يجسم تلك الأفكار والمعتقدات ويتفق معها » . والتشابه مع التعريف السابق واضح ، أما الاختلاف فيبدو من أن هذا الأخير أبرز الجانب السلوكى وركز على عامل الفعل الذى يقوم به الانسان تجسيدا لما يؤمن به من أفكار ومعتقدات .

ثم نلاحظ اختلافا كليا بين ما سبق وبين مفهوم ثالث « (١٢) يرتب الأولويات الواجب الأخذ بها عند بحث ماهية الأيديولوجية فيقول انه من الناحية الواقعية « يجب النظر الى الأيديولوجية على أنها تشتمل على معتقدات في المرتبة الأولى ، وعلى أفكار في المرتبة الثانية . ان التمييز الأساسى بينهما هو أن الأفكار يمكن أن تخضع للبحث العلمى ( مثل الاختبار والتحقق من مدى صحتها ) ، وليس كذلك العقائد » .

ويحدد صاحب ذلك التفسير ابعادا خمسة لمفهوم الأيديولوجية يبدو متأثرا في الثلاثة الأولى منها حسب قوله بمفهوم تالكوت بارسونز عن الثقافة ، ويمكن تلخيص تلك الأبعاد فيما يلى :

- البعد الإدراكى : المعرفة والعقيدة
- البعد الإثارى : المشاعر والعواطف
- البعد التقييمى : المعايير والقيم
- البعد المنهجى : الخطط والبرامج
- الأساس الاجتماعى : التنظيمات والجماعات المشاركة

ويهتم عالم آخر (١٣) بالفرقة بين الأيديولوجيات المختلفة عن طريق التمييز بين أربعة أوجه يعتبرها هامة بالنسبة لكل منها وهى : مصادرها التى استقيت منها ، وظائفها وخاصة تلك المتعلقة بمدى سيطرتها وشرعيتها،

Karl Loewenstein, «L'Influence des idéologies sur les changements (١١) politiques», Bulletin International des Sciences Sociales, 1953, p. 55 ;

أورد النصر د. حسن صعب ، علم السياسة ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

Mustafa Rejal, ed., Decline of Ideology, Chicago/New York 1971, p. 3. (١٢)

Roy C. Macridis, The Study of Comparative Government, New York (١٣) 1954, cited by : M. Rejal, Decline of Ideology, op. cit., p. 12.

انتشارها ، علاقتها بتنظيم السلطة السياسية ، ولا شك أن مثل تلك المقارنات تفيدنا فائدة كبيرة في التعرف على ماهية كل منها مما يسهل عملية تصنيفها وفق معايير يمكن استنباطها .

هذا وقد سبق أن ذكرنا (١٤) أن معانى الأيديولوجية وماهيتها يمكن فهمها إذا أدخلنا في اعتبارنا أن للبشر معتقدات حول ما يمكن اعتباره حقائق وقيم ، فهم يعتقدون أن بعض التعبيرات أو الفروض تمثل أوصافا صادقة للواقع الحى ، كما يعتقدون أن هناك تعبيرات وفروض أخرى تشير الى ما هو حسن وحقيقى وعادل ، أى أنهم يحتفظون بمعتقدات حول ما هو قائم فعلا ، وحول ما يجب أن يكون .

فمن ناحية ، لا يمكن تسمية المعتقدات التى تقتصر على الواقع بالأيديولوجية وهو ما يعنى أن تلك الأخيرة لا يمكن أن تكون وصفية خالصة ، من ناحية أخرى ، يجب أن يشتمل البناء الفكرى على معتقدات تدور حول قيم حتى يمكن القول بوجود أيديولوجية ، وهو ما يعنى فى هذه الحالة الثانية أن الأيديولوجيات معيارية دائمة — على الأقل فى جانب منها — أى أنها تعكس أو توحى بمفاهيم حول « ما يجب أن يكون » (١٥) .

من هذا المنطلق ، يطلق اصطلاح أيديولوجية على أية مجموعة من المعتقدات تدور حول « ما يجب أن يكون » بشرط أن تكون تلك المعتقدات متماسكة ومترابطة منطقيا ، وبالتالي فإنه يمكن اطلاق هذا الاصطلاح على أى بناء فكرى ذو صفة معيارية ، هذا ويرتبط الايمان بمجموعة من القيم عادة بالاستعداد لتقبل بعض فروض وصفية ذات طابع نسبى .

فهؤلاء الذين يؤمنون بالأيديولوجية الليبرالية مثلا يؤكدون — من منطلق أنها قيمة من القيم — أن شخصية الانسان جديرة بالتبجيل وأن كرامته يجب أن تصان وتحترم . فى نفس الوقت يعتقدون أن البشر قادرون من الناحية الواقعية على حكم أنفسهم ديمقراطيا ، وأن الحكومة الديمقراطية غالبا ما تحترم الفرد وتحافظ على كرامته . بمعنى آخر فإن قبول الناس الخضوع لنظام ديمقراطى مشروط بتحقيق قيمة من القيم .

أما الناقدون للأيديولوجية الليبرالية من كل المشارب فينتقدون القيم الراسمالية للحكم على أساس أن العبرة بالأفعال وليس بالأقوال . إذ ما فائدة النصوص الدستورية أو الشعارات التى تتحدث عن احترام الفرد وصون كرامته إذا لم تكفل حرية التعبير عن الراى وفقا للمفهوم الليبرالى . ان الاغتيالات التى يتعرض لها زعماء حركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة على سبيل المثال ، والمعاملة التى لقيها المعارضون لحرب

(١٤) محمد محمود ربيع ، مناخ البحث فى السياسة ، مرجع سابق ، ص ٢٢٩ — ٢٢١ .  
Vernon van Dyke, Political Science (A Philosophical Analysis), (١٥)  
London 1960, pp. 172, 173.



مبتتام لا يمكن بحال أن تنهض كاذلة على احترام النظم السياسية الليبرالية للفرد أو صيانة كرامته ، ومثل هذا يمكن أن يقال عن كثير من الأيديولوجيات الأخرى المعاصرة بما في ذلك أيديولوجيات العالم الثالث .

لقد أدخل كارل مانهايم تعديلات على المفهوم السابق للأيديولوجية وأضاف إليه أن المعتقدات ترتبط بوضع المشاهد الذي يعيش في بيئة ما . فخبيرة الناس التي يكتبونها في المعيشة في المجتمع هي التي تصوغ مفهومهم لطبيعة مصالحهم ، وبالتالي فانهم ينظرون الى المشاكل الاجتماعية على ضوء مصالحهم ، فمعتقداتهم اذن وأيديولوجياتهم هي انعكاسات لمصالحهم ولا يصح تناولها كشيء واقعى (١٦) .

ان الجدير بالملاحظة ان النتيجة التي انتهى اليها مانهايم من ان كل المعتقدات تتأثر بمصالح معتققيها وبوضعهم الاجتماعى تتفق مع رأى كارل ماركس القائل بأن الأفكار هي من خلق ظروف الحياة المادية المتغيرة . ويقر مانهايم ان المعيار الأسمى للخطأ والصواب يكمن في اختبار الشيء ذاته وان كان يستدرك بأن ذلك الاختبار ليس عملا منعزلا بل يتم في وضع يتأثر بالقيم والدوافع الإرادية (١٧) .

وبغض النظر عن المفهوم الذى سيؤخذ به لاصلاح الأيديولوجية ، فان ما يمكن أن يسمى بمعتقدات أيديولوجية تزود معتققيها بدوافع ومبررات للعمل مع ما يصحب ذلك من قواعد وتعاليم ، وعندما تشتمل تلك المعتقدات على أيديولوجية فانها — أى المعتقدات — لا تكون عشوائية فجأة وانما ترتبط ببعضها في بناء فكرى متماسك .

#### ٤ — دور الأيديولوجية السياسية :

وقد يكون من الصعب تغطية كافة جوانب الأدوار التي تقوم بها الأيديولوجية وذلك لأن كل نظام سياسى أو جماعة أو فرد قد يستهدف من الأيديولوجية المتبناة أهدافا معلنة كما قد تكون له أهدافا أخرى غير معلنة تتعدد وتتنوع بقدر ما في هذا العالم ونظمه السياسية وجماعاته من تعقيد وتشابك . رغم ذلك نستعرض آراء بعض العلماء والكتاب حول مفاهيمهم للدور الذى تقوم به الأيديولوجية .

نلاحظ بالنسبة لمعظم دول العالم الثالث — وهى التي تهتمنا هنا — التي استقلت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن الأيديولوجيات الجديدة التي تبنتها تتعدى مجرد كونها أطرا سياسية لتحقيق الاستقلال السياسى (١٨)

Karl Mannheim, *Ideology and Utopia (An Introduction to the Sociology of Knowledge)*, London 1960, first publ. 1936, pp. 49 ff. (١٦)

Ibid., p. 4. (١٧)

Paul E. Sigmund, Jr., ed., *The Ideologies of the Developing Nations*, New York and London, 1963, pp. 3 ff. (١٨)

والمحافظة عليه في مواجهة الاستعمار الجديد ورفع شعار الحياد الإيجابي . . الخ . ويجد الدارس لتلك الأيديولوجيات أنها تحتوي في الأغلب على خطوط عريضة أو تصورات لما تطمح إليه قيادات تلك الشعوب في تحقيق ثورات مماثلة أو على الأقل اصلاحات على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي سعيا وراء بناء الدولة الحديثة والتغلب على عوامل التمزق والتشرذم وبقايا الثقافة التقليدية وان كان كل ذلك محكوم بالطبع بمدى تقدم أو تخلف البيئة واخلص النخبة التي تتصدى لهذه المهام الثقيلة من خلال الشعارات المطروحة والأيديولوجيات المتبناة .

ويعتبر تحقيق الأيديولوجية لحد أدنى من النجاح في قيامها بالانجازات الاقتصادية والاجتماعية المرجوة وتحديث نظم التعليم والارتقاء بالثقافة وتوغير الأسس لتنشئة سياسية سليمة شرطا أساسيا لاستقرار النظام السياسي وزيادة الاتجاه نحو بناء الأمة وتدعيم الولاء للنخبات الجديدة التي تعتبر الأيديولوجية واجهة لها .

ليس أقل أهمية سواء بالنسبة للدول النامية أو للدول المتقدمة ما تقوم به الأيديولوجية في مجال التغير الاجتماعي(١٩) وخاصة اذا تذكرنا الظروف الخاصة للقرن العشرين وما يتميز به من حدة المشاكل الاجتماعية وسرعة ايقاع الأحداث مما زاد من العلاقة الجدلية بين الحركات الأيديولوجية وبين التغيرات الاجتماعية. بالمثل، زاد الصراع الأيديولوجي نتيجة لعمليات الاحلال الاجتماعي التي حدثت في أعقاب الثورات والحروب العالمية التي عرفها القرن العشرون والتي أدت فيما أدت اليه الى تغيرات مماثلة في قدرة الطبقات الاجتماعية المختلفة . ويترتب على تلك التغيرات الأخيرة تخلخل في مراكز وقدرات بعض النخبات وتدعيم لمواقع نخبات أخرى في تلك المجتمعات . وغنى عن البيان ما تؤدي اليه عمليات التخلخل تلك من آثار بعيدة المدى على مصالح كل طرف منها وتنعكس بالتالي على الأيديولوجيات التي يتبناها كل جانب بعد تغليفها طبعا بشعارات ديمقراطية أو دينية أو اجتماعية حسب مقتضى الحال .

تلعب الأيديولوجية دورا هاما أيضا في الصراع من أجل السيطرة على عقل وفكر الجماعات والشعوب ليس فقط من أجل كسب حرب نفسية تدور حول مشكلة معينة وانما للضغط على الحكومات من الداخل أو لتحبيد بعض الجماعات المعادية أو للترويج لتيار انهزامي يتوقف على انتشاره حسب

Carle C. Zimmerman, "Ideological Movements and Social Change" in : (١٩)  
Joseph S. Roucek, ed., Contemporary Political Ideologies, New Jersey  
1961, pp. 3-19 ;

كذلك : محمد احمد الزمعي ، التغير الاجتماعي ( بين علم الاجتماع البورجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٨ .

نتيجة حرب أو صراع معين . ويضيف البعض (٢٠) أن الثورة المذهلة في وسائل الاتصال قد مارست تحدياً لا يقاوم لكثير من التقاليد الراسخة ، وقلبت بعض العقائد والمسلمات رأساً على عقب ، وأضفت طابعاً أيديولوجياً فريداً على الصراع الثقافي بين الحضارات المتنافسة بحيث لم تعد هناك أية منظومة فكرية أو عقيدة بمنأى عن المنازعات الأيديولوجية الراهنة .

ثم نأتى إلى ما يسمى بأيديولوجية الـ : Mass Society (٢١) والتي نسميها مؤقنتاً أيديولوجية مجتمع الجماهير لتعذر ترجمة عربية دقيقة . وللكاتب رأى غريب في هذا الموضوع حول دور تلك الأيديولوجية نهد له بايجاز حتى يصير واضحاً ، فقد كان خوزيه أورتيخا هو أول من استعمل هذا المصطلح mass man (hombre masa) عام ١٩٢٦ ليشير به إلى نمط أو نموذج جديد للفرد المتوحد غير الشخص الذي أنتجته الأوضاع المعاصرة . وهو مدين في تنظير هذا النمط إلى نظريات التحلل الثقافي والحضارى وان كانت آراءه أكثر تعبيراً عن مخاوف المفكرين المحافظين من المخاطر الحالية التي تهدد النخب السياسية والثقافية من قبل ما أسماه بالحركات الجماهيرية والأيديولوجيات المتطرفة ، لقد كان أورتيخا - شأنه شأن شبنجلر - ينظر إلى التكنولوجيا بانعدام ثقة بالغ . كما كان أورتيخا بالذات يتخوف من الأوضاع المخيفة المؤدية إلى التماثل والتي تولد ذلك النمط الإنسانى الجديد .

ولعل أكثر ما يدعو إلى قلق محلى تلك الأيديولوجية هو أن الاتجاه العام للبشرية يسير نحو المساواة الاجتماعية وانهيار التمايز والتفرد ، وأن الثقافات المختلفة تتجه هي الأخرى أكثر فأكثر نحو فقد طابعها المميز . والمجتمع الحديث في رأيهم هو محصلة انهيار العام لعناصر الفصل أو العزل التي كانت تميز المجتمعات السابقة ، وهو النتيجة الموازية أيضاً لفقد الشعور بالقداسة .

يصاحب النظرية الجديدة تطوير فكرة معاكسة للنظرية الليبرالية للفرد . ان النقيض للإنسان الفردى العقلانى الحر ليس عضو القبيلة وإنما هو ذلك النمط الإنسانى الجديد . ورغم أن المفروض أن هذا الأخير يعيش في الوسط أو البيئة المتقدمة لحضارة حديثة فانه في الحقيقة لا ينتمى إلى المجتمع المدنى فهو غير حر ويمكن خداعه واغترابه ، وهم يعرفون ذلك النمط الجديد بميله المفترض إلى « المجموع » أو « الجماهير » وهو صورتها المصغرة . انه يفتقر إلى الفردية ( بمعنى التمايز والتفرد ) ، والحسن الأخلاقى ، وسلامة التوجه . لهذا فهم يرون فيه البربرى الهمجى في صورته الحديثة وان كان يختلف عن سابقه الذين عرفهم التاريخ في أنه لا يهدد الحضارة من الخارج وإنما يتربص داخلها بشكل غادر وينخر أبداً رحمها الرقيق . .

J. S. Roucek, ed., Preface to: Contemporary Political Ideologies, (٢٠) op. cit., p. IX.

Salvador Giner, Mass Society, London 1976, pp. 258, 259.

(٢١)

أما الدور الشاذ للأيديولوجية الذي يراه المحللون والناقدون لهذا التيار فيستند إلى أن التكنولوجيا والرفاهية الاقتصادية والمساواة السياسية خلقت مجتمعا متجانسا أصبح الناس فيه ضحية للقوى غير المشخصة للبيروقراطية بينما صارت الأيديولوجية أو ما أسماه التعصب الأيديولوجي هو ملجأهم الوحيد والمدمر من الخواء الأخلاقي الناتج من الإلحاد وفقدان الإحساس (٢٢) .

يبقى الدور الهام الذي تقوم به الأيديولوجية بصفتها أحد المكونات الهامة في التحليل المقارن للنظم السياسية (٢٣) . وقد اعتبر روى ماكريديس أن العناصر الثلاثة الأخرى التي تساعد على تلك المقارنة هي صنع القرار ، والقدرة ، والمؤسسات .

#### ٥ - المصاعب والتحفظات التي تعترض استخدام الأيديولوجية السياسية :

هناك ولاشك مصاعب وتحفظات تعوق الاستعانة العلمية بالأيديولوجية في المجالات السياسية نذكر منها :

— تعذر معرفة عدد المؤمنين حقيقة بأيديولوجيات سياسية ، وهل يفهمون فعلا معنى تلك الأيديولوجيات ومدى ذلك الفهم . كما يتعذر معرفة مدى تأثير الإيمان بأيديولوجية ما على الفرد أو على سياسة ما (٢٤) .

— تتسم المعتقدات التي تتكون منها الأيديولوجية بأنها ليست دقيقة دائما وإنما على العكس من ذلك فإنها غالبا ما تكون مبهمه وقابلة للتشكيل بطرق مختلفة حسب اختلاف العصر والأشخاص المؤمنين بها .

— قد يكون مفهوم شخص ما للأيديولوجية التي يعتنقها في طريقه إلى التغيير ، هنا يتعين معرفة وقياس مدى التغيير وسببه والاتجاه الذي يسير فيه .

— قد يفسر الأفراد الأيديولوجية التي يؤمنون بها تفسيرات متعددة قد تنتهي بالاتفاق أو قد تنحرف عن مفهومها ومسارها . وتبدو أهمية ذلك عندما تكون الأيديولوجية دليلا تسترشد به حركة سياسية ما حيث يصبح للاتفاق أو الاختلاف في التفسير مغزى خاصا .

ويعتبر تاريخ الأديان والأيديولوجيات السياسية مجالا خصبا لمثل تلك الدراسات حيث يدعى كل حزب أو تكتل أو فريق أن مفهومه للدين أو

Ibid., pp. XI, XII, 74 - 76.

(٢٢)

M. Rejai, ed., Decline of Ideology, op. cit., p. 12 ; also Roy Macridis, (٢٣)

"A Survey of The Field of Comparative Government", in : H. Eckstein and D. Apter, eds., Comparative Politics (A Reader), New York and London 1963, pp. 43 ff.

H. Drucker, The Political Uses of Ideology, op. cit., p. XI.

(٢٤)

المذهب هو المفهوم الوحيد الصحيح وما عداه مروق عن تعاليم السماء أو انحراف عن الخط السليم للمذهب السياسى مع ما يتبع ذلك من انقسامات وظهور فرق جديدة وحجج مضادة قد يصل الصراع بينها الى حد القطيعة أو اللجوء الى العنف .

لا يقتصر الغموض فقط على الأيديولوجيات نفسها وقابليتها للتفسير بطرق متعددة ، وإنما ينسحب أيضا على الأوضاع التى تطبق فيها من حيث ما قد يشوبها من ارتباك وخلط . مثال ذلك وجهة النظر الماركسية التى ترى ان الأحداث التاريخية تتعرض لحركات مد وجزر ثورى . لمواجهة ذلك يخطط الماركسيون بوضع استراتيجيات معينة لمواجهة الأوضاع التى تسودها حالة من المد الثورى . كما يضعون استراتيجيات أخرى لمواجهة أوضاع الجزر الثورى ، لكن يثور الخلاف حول المعايير التى استخدمت للحكم على أوضاع ما بأنها تمثل حالة من المد أو الجزر الثورى ، ومدى إمكانية الاعتماد على تلك المعايير ، وهو ما تعكسه الآراء المتباينة للماركسيين انفسهم حول الموضوع .

لهذا يتحتم على غير الماركسيين الذين يحاولون استخدام الأيدولوجية كطريقة للتفسير أو التنبؤ أن يهتموا ليس فقط بالطريقة التى يفسر بها الماركسيون — باتجاهاتهم المتعددة — المذهب الماركسى ، وإنما أن يهتموا أيضا بأسلوب تعريفهم للوضع والخلفية اللذين يتم فيهما تطبيق ذلك المذهب .

قد تظهر مشكلة أخرى نتيجة انتهاء الشخص لأيديولوجيات متعارضة مثل الليبرالية والماركسية من جانب علاوة على القومية من جانب آخر ، ورغم أن تلك الأيديولوجيات قد تتفق من عدة أوجه إلا أنه من المؤكد أن تظهر بعض التناقضات خلال الممارسة اليومية مما يدفع الفرد بشكل ما الى الاختيار بينها . فى تلك الحالة ، يجب أن يشمل تفسير سلوك ما أو التنبؤ به تفسيراً أو تنبؤاً بالاختيارات التى تمت بين الأيديولوجيات التى تتنافس على ولاء الفرد .

قد يكون من المستحسن تجنب الافتراض الذى يرى ان الاعتبارات الأيدولوجية تؤثر وتتحكم فى « كل الأفعال » ، فمشاعر الطموح أو الرغبات الشخصية مثلا ليست لها طبيعة أيدولوجية ومع ذلك فهى تحل أحيانا محل الأيدولوجية فى التأثير على سلوك الفرد لدرجة ان الدوافع الشخصية للأشخاص الذين يحتلون مراكز سياسية حساسة قد تكون لها أهمية كبيرة فى تشكيل سير الأحداث . أى أنه مع الاعتراف بأن معرفة الأيدولوجية أو الأيدولوجيات التى يؤمن بها الفرد مفيدة غالبا فى تفسير سلوكه أو التنبؤ به ، فإن تلك المعرفة ليست دائما سهلة عند التطبيق (٢٥) .

## ٦ - علاقة الأيديولوجية بالموضوعية وبالصراع بين تيارات الحقائق والقيم :

كما يتعذر أن تتخذ العلوم الاجتماعية بصفة عامة موقف الحياد من الأحداث والصراعات والقوى في عالمنا المعاصر ، فإنه يتعذر أيضاً قبول الادعاء بقدرة المفكر على الالتزام بالموضوعية المطلقة لأن ذلك يفترض إمكان تجرد الإنسان تماماً من الاعتبارات البيئية والانتماآت الشخصية . هذا مع التسليم طبعاً ، بأن الحكم على قيمة الانتاج الفكري يظل معلقاً بمدى تمتعه بالحد الأدنى من الحياد المتعارف عليه وهو ما أدى في النهاية الى الاعتراف بأن الموضوعية لا يمكن أن تكون مطلقة وإنما نسبية (٢٦) .

لهذا فان المثقف الذين يستعين بالأيديولوجيات السياسية المعاصرة كأداة هامة من الأدوات التي تساعد على دراسة وفهم الظواهر السياسية ، يجد نفسه مضطراً الى تحديد موقفه من الصراع المستعر بين تيارين ينادى أولهما ( ممثلاً أساساً في الفيلسفتين الوضعية والوضعية المنطقية ) باستقلال العلم عن القيم كالحق والخير والجمال والحرية والإيمان والسلام . . . الخ ، ويرفض الثاني ذلك للأسباب التي سنشرحها فيما يلي .

فالتيار الأول ينادى بعدم الاعتراف بما تعجز التجارب الحسية عن اثبات صحته أو وجوده . كما ينظر الى العلم نظرة جامدة تفصله تماماً عن كل القيم التي يعتز بها الإنسان السوى سواء أكانت قيماً روحية أو أخلاقية أو جمالية . ويرفض لواء ذلك التيار علماء السياسة المحافظون وبعض الليبراليين الذين ينكرون دور العقل ولا يعترفون الا بما تسفر عنه التجارب

(٢٦) حول نسبية الموضوعية والقيود التي تحد منها وموقف التحليل العلمي من « الحقائق والقيم » والانفصال المنطقي بينهما والمدى الذي لا يمكن تجاوزه لا يمكن اطلاق الفاظ مثل موضوعي ومنهجي على الفروض والنظريات المبنية على أو المتأثرة بقيم معينة ، حول هذه الموضوعات انظر :

A. Brecht, Political Theory, op. cit., pp. 298 - 301 ; Carl J. Friedrich, Man and His Government (An Empirical Theory of Politics, New York 1963, pp. 67, 68 ; Max Weber on The Methodology of the Social Sciences, trans. and ed. E.A. Shils, H.A. Finch, New York 1949, pp. 1 - 47 ; T. Parsons, The Structure of Social Action, N.Y. 1937, pp. 593 - 597.

وللرجوع الى مصادر أحدث حول تطور ذلك الجدل انظر :

W.D. Hudson, ed., The Is-Ought Question, N.Y. 1969, especially John Searl's Article : «How to derive Ought from Is» pp. 120 - 134.

تكن أهمية هذه المقالة الأخيرة في أنها تحتوي هجوماً مباشراً على الأسس الفلسفية لما يسمى بحياد العلوم الاجتماعية .

Cited by Fred M. Frohock, "Notes on the Concept of Politics : Weber, Easton, Strauss" in : The Journal of Politics, Vol. 36, No. 2, Gainesville Florida, Max 1974, pp. 379 - 381 ; cf. D.C. Schwartz, "Toward a More Relevant and Rigorous Political Science" in The Journal of Politics, Vol. 36, No. 1, Feb. 1974, p. 119 ; also Bernard Crick, In Defence of Politics, Middlesex England 1973, p. 190.

المعملية ، وان كانت تلك الأخيرة كما هو معروف لا تستطيع بحكم طبيعتها التحقق من وجود أو صحة تلك القيم .

يرفض التيار الثانى ذلك التعسف وينادى بدرجات متفاوتة بصعوبة الفصل التحكمى بين العلم والقيم . ويندرج تحت هذا التيار الثانى كثير من اتباع العقائد الايمانية ، والماركسيون ، وبعض الليبراليين الذين اكتشفوا عقم التيار الأول .

ادت تلك الصراعات فيما ادت اليه الى تعرض الفلسفة السياسية لاشكال كثيرة من الهجوم والنقد وخاصة في اوائل القرن الحالى على ايدى اصحاب التيار الاول المطالبين بالتححرر من سطوة القيم فى الدراسات العلمية ، من امثال هؤلاء ماكس فيبر الذى وجدت كتاباته صدى كبيرا لدى عدد من علماء السياسة كأرنولد بريشت (٢٧) الذى يعد من ابرز من عبر عن اتجاه فيبر القائم على ضرورة استقلال العلم عن القيم اى التمييز بين عمليات التفسير والتقييم فى العلوم الاجتماعية وما يترتب عليه من الدعوة الى الحياد ازاء القيم .

كان من اهم اوجه النقد ان الفلسفة السياسية ما هى الا سلسلة من التفسيرات للايديولوجيات ، وانها تحمل تبريرات لأفكار مسبقة تمثل فى الغالب طبقة معينة أو اية مصالح أخرى . اى ان الفلسفة السياسية لا تقوم على الاسس العلمية للمشاهدة والوصف والقياس والتحليل وانما هى معيارية تشتمل فى رأيهم على قيم ومعايير مستهلكة .

الا انه ليس هناك اتفاق على هذا الموقف حتى بين المفكرين الليبراليين انفسهم . فكارل يواكيم فريديش مثلا ، رغم تسليمه بأخطاء بعض الفروض التى وردت فى كتب أفلاطون الثلاثة الجهورية والسياسة والقوانين ، يتساءل متعجبا : هل كان أفلاطون مخطئا فى اصراره على أن القانون والحق هما المشكلتان اللتان تواجهان كل مجتمع سياسى ؟ يطرح ذلك موضوع العدالة ، ويفتح الباب على مصراعيه للتساؤل : ما هى الفضيلة وما هو المعيار ؟ (٢٨)

ويمكن القول انه بعد تجارب طويلة فى حقول دراساتهم الاكاديمية ، فان أعدادا متزايدة من هؤلاء المفكرين يبتعدون أكثر فاكثرا عن الاتجاه المتطرف الذى ساد الاحقاب الأولى من القرن الحالى وبدأوا يسلمون باستحالة الفصل التحكمى بين حقلى التجريب والقيم .

A. Brecht, Political Theory, op. cit., pp. 3-162.

(٢٧)

C. J. Friedrich, Man and His Government, op. cit., pp. 4, 5; cf.

(٢٨)

B. Crick, In Defence of Politics, op. cit., pp. 198, 199, 190 ff.

يحفل الأدب السياسي بالكثير من المرادفات في هذا الشأن ، فقد جرت العادة على التمييز بين النظريات التي تقوم على التجريب وتلك التي تعتمد على القيم ، أو بين السلوكية - وهو التعبير الذي يستخدمه البعض في الولايات المتحدة للأسلوب التجريبي - وبين الفلسفة السياسية ، ويحلو للبعض أحيانا أن يميزوا بين ما هو كائن ، وبين ما يجب أن يكون وهو شكل آخر لنفس الخلاف .

يسلم بعض المفكرين بأن طوفان الكتابات حول هذا الخلاف المستعر بين المثقفين أنها يعكس تمييزا مصطنعا بين وسائل المعرفة المختلفة لأن القرارات السياسية هي بطبيعتها تتأثر بقيم صانعيها .

لهذا فانه لا داعي لافتراض وجود انقسام أو تعارض بين النظريات التجريبية وتلك المستمدة من القيم حيث أنها متكاملة وتعتمد كل منها على الأخرى ، ان التفرقة بين مجالات التفسير والتقييم ليست بالوضوح الذي يتصوره البعض ، كما وأن الفصل بينهما ليس في صالح أي منهما (٢٩) .

توضح كتابات أخرى نفس التمرد على المغالاة في اتجاه النسبية حول هذا الموضوع وهو ما يهمنى في علاقته بدراسة الأيديولوجيات كما سبقت الإشارة . وينصح هؤلاء بضرورة الاستفادة من الأسلوبين والدمج التام بينهما في عملية تطوير نظريات تجريبية تسترشد بالقيم . يضيفون الى ذلك مزية أخرى وهي أنه بتطوير تلك النماذج التجريبية ذات القيم يساعد كل أسلوب منهما على كشف قصور الأسلوب الآخر ومن ثم يلفت الانتباه الى ضرورة تعديله وتحسينه (٣٠) .

ثم يصل النقد أقصاه بتعرية الادعاء بإمكان وجود موضوعية كاملة في البحث العلمى وعدم تأثر الباحث باية اعتبارات بيئية أو قيم ذاتية كما سبق أن ذكرنا . غنى الواقع العلمى ، يقوم علماء السياسة باختيار وتنظيم المادة التي يستعملونها في بحوثهم أو محاضراتهم ، وهم يحتاجون من أجل ذلك الى اجراء عمليات انتقاء حقيقة مادون حقيقة أخرى أو شكل تنظيمى معين دون شكل آخر أو خطة بحث دون أخرى وهكذا ، قد تكون عملية الانتقاء عشوائية ولكنها في الأغلب الأعم ليست كذلك وإنما تحكمها معايير يأخذ بها كل باحث .

Frey M. Wirt, Morey, Brakeman, Introductory Problems in Political (٢٩)  
Research, Englewood Cliffs, N.J. 1970, pp. 2, 3 ; Stephen L. Wasby,  
Political Science, The Discipline and its Dimensions, An Introduction,  
New York 1970, p. 303.

Robert T. Golembiewski, et. al., A Methodological Primer for Political (٣٠)  
Scientists, Chicago 1969, pp 450-455



وقد عبر عالم آخر عن ذلك بقوله أنه رغم المطالبة ببحوث محايدة أو خالية من القيم ، فإن عدم وجود معيار متفق عليه لاختيار الموضوعات الهامة للدراسة يدفع العلماء الى اختيار موضوعات أخرى تتفق مع مصالحهم الخاصة ، واختيار المتغيرات التي يدرسونها من تلك الموضوعات .

« وإذا كنا عاجزين عن تنحية قيمنا جانبا بشكل كامل في اختيار ماندرس فإن ذلك يبرز نقدا هاما هو أن التفرقة بين الحقائق والقيم تتناقض مع تجربتنا الذاتية » (٢١) .

في ختام هذا البحث نقول أنه رغم التحفظات التي ترد على استخدام الأيديولوجيات السياسية ، ورغم الخلافات الحادة بين التيارات المدافعة عن أولوية الحقائق أو القيم ، يجب عدم المغالاة في الصعوبات التي تعترض الباحث أو رجل السياسة عند الاستعانة بها ، خاصة وأنها أثبتت فائدة كبيرة في تفسير الأسباب والخلفيات وراء قيام نظم الحكم في الدول الرأسمالية والاشتراكية ، وكذلك شرح أسباب الحركات القومية التي اجتاحت أوروبا ثم بقية أنحاء العالم بعد ذلك .

ولاشك أنه سيكون من دواعي الاستغراب أن يقوم باحث بتفسير مواقف القوى الكبرى في المنظمات الدولية ، أو وصف التطورات السياسية الهامة التي حدثت في العالم خلال الاحقاب الماضية دون أن يشير مباشرة أو بشكل غير مباشر الى واحدة أو أكثر من الأيديولوجيات السياسية لعالمنا المعاصر .